حوار الحضارات

ينطلق مصطلح «حوار الحضارات» التي تمّ تسويقه لامتصاص النقمة الممكن حدوثها ضدّ الطغيان الغربي من مغالطة كبرى تقوم على مصادرة خطيرة عن الموضوع..

وكلمة «الحوار» تعدّ هنا من ظلال كلمة «الصّراع»، ومن الكلمتين تقوم ثنائية تنضمّ إلى الثنائيات الكثيرة في الحياة والكون، (الحق والباطل، الليل والنهار،الأسود والأبيض.. الموت والحياة)..

وبما أنّ البشر ليسوا ولا يمكن أن يكونوا على رأي واحد، فقد كان من المتوقع عند ظهور مصطلح الصّراع، أن يظهر مقابلاً له مصطلح الحوار.. غير أنّ هذا المصطلح الثاني ظلّ مجرّد «جِلْد» يابس يحاول البعض نفخ الرّوح فيه بتجميع «رجال الدّين والثقافة» لمناقشته وإثرائه، رغم أنّ الحوار يعني مناقشة تدور بين الثقافات والأفكار والاتجاهات، ولا يعني أبداً الالتقاء في مؤتمر لمناقشة مصطلح «حوار الثقافات» وتحديد مفاهيمه وآفاقه المستقبلية..

ولعلّ الخطأ دخل الموضوع من عدم تحديد الهدف المرجوّ من هذا الحوار..

فما هو المرجو من «حوار الحضارات»؟..

المرجوّ طبعاً هو التعايش عبر الوصول إلى فهم الآخر فهماً يجعل من الواجب عدم تجاوز مقدّساته وحماه، وأمام هذا فإن من المؤمّل للحوار أن يوجد واقعاً بديلاً لواقع الصّراع، لذلك فأطراف الصّراع معنية أكثر من غيرها بأن تتحاور، لتصل إلى نتيجة.. لكنّ الموجود في الواقع اليوم هو أن

المادية المهيمنة، والتي تستفزّ الآخر وتستدعيه عَبْر نُخَبه الثقافية إلى الحرب تغيّب مصطلح «الحوار».. وتجعله هامشياً عبر إيحائها لبعض المثقفين ورجال الدين بحمله وتمثيله..

إن الأطراف التي تتصارع اليوم ليست هي التي تتحاور..

ففي جلسات ومنتديات ومؤتمرات حوار الثقافات يجتمع «رجال الدين والثقافة»، وهؤلاء لا ناقة لهم في الصّراع ولا جمل..

وحتى إذا وصل هؤلاء إلى نتيجة، هل يعني ذلك أن تتوقف النخب التي على شاكلة «بن لادن» عن مشاريعها التصفوية للمادية الطّاغية؟! وهل تنتهي المادية المهيمنة المتمثلة في الغرب وأمريكا عن قمع ومحاربة كلّ خارج عن اللعبة المفروضة؟!!

إنّ استبعاد النخب الثقافية الثائرة ضدّ الماديّة من الحوار باعتبارها إرهابيّة، أو معادية للحداثة أو غير ذلك، معناه ترسيم «حوار الحضارات» عبر اتخاذ المثقفين ورجال الدين والسياسيين الرّسميين في الشعوب الضعيفة (العالم الثالث) وكلاء معتمدين ليكونوا طرفاً آخر للحوار، نيابة عن حضارة أو عن أمة فيها غيرهم وغير أفكارهم ومعنى هذا إخضاع منطق «الحوار» مرّة ثانية لمنطق المادّة، وإلاّ لماذا لا يكون مقبولاً في الحوار ومنطقه الجديد إلاّ صاحب الفكر المنبطح أمام الهيمنة الغربيّة؟!!

هذا في الطرف الضعيف، أما في الطرف الآخر الغربي أو الشمالي في معادلة حرب «الشمال والجنوب»، فإنّ المخوّل بالحوار ليس هو السياسي أو العسكري أو الاقتصادي الذي يدير آلة الصّراع والهيمنة والتّحق.

لذلك يبقى الحوار رسالة من مُرسل غير معني إلى متلقٍّ غير معنيّ أيضاً..

إنّ في العالم اليوم شقّان، شقّ يمثّله المتضادون الأقوياء الذين يتصارعون وفق منطق القوّة، وفي هذا الإطار تدور حرب المادة والثقافة، أمّا الشق

الآخر فهو شقّ الذين لا يصارعون، وهم المثقفون ورجال الدّين من الغربيين ومن الشعوب والأمم المستضعفة والذين يمثّلون طرفي الحوار..

إنّ الكنيسة في الغرب مفصولة عن دفة الحكم، والنخبة الثّائرة في دول العالم الثالث ومنها الأمة الإسلامية كافرة بكلّ ما هو رسمي وسلبي (منبطح) سواء كان رجل دين، أو مثقف، أو حتى حاكم، لذلك يبقى الشرخ ممتدّاً والفجوة كبيرة بين المعسكرين، معسكر الصّراع، ومعسكر الحوار، تماماً كما هي كبيرة بين الكنيسة والسلطة في الغرب، أو بين بن لادن ورِجال الدين الرسميين في الشرق..

لكلّ ذلك يبقى الحوار مجرّد عنصر يبدو ثقافياً لكنّه في الحقيقة ماديّ يعمل أكثر ما يعمل على عَزْل النخب الثقافية عن مجتمعاتها بإخراجها من صورة المستضعف المدافع عن ثقافته ضدّ الماديّة، إلى صورة المعادي للحوار والتعايش الذي تدعو إليه الثقافة الأخرى الغربيّة، والتي ليست في الحقيقة سوى ثقافة خادمة للهيمنة الماديّة.

إنّ الدين لله.. هكذا يقول القرآن الكريم.. ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾[1].. وجعل الدين لجهة ما مهيمنة يُعَدُّ مشكلة كبيرة، لأنّ ذلك يقطع علاقة الأرض بالسماء، لتبقى العلاقات كلّها وحتى الدينية أرضية، يحكم فيها على الضعفاء بالدخول إلى محاريب الأقوياء لصرف العبادة إليهم وحدهم..

إنّ من الاستفزاز الثقافي أن يتكلم الرئيس الأمريكي جورج بوش وزوجته لورا عن الإسلام مثلما يتصورانه (وحسب هواهما)، وحينما يكون معنى «حوار الحضارات» الإذعان لمفهوم الطرف الأقوى فيما يخصّ كلّ شيء حتى فهم الدين، يكون الخيار المنطقي الأقرب للتميّز والذاتيّة هو الصّراع..

(١) البقرة آية ١٩٣.

إنّ شبكة علاقات البشر ستبقى تهتزّ عبر مرحلتين متطاولتين من الصّراع، إحداهما مرحلة صراع الثقافات مع المادة، والثانية هي مرحلة تصارع الثقافات فيما بينها..

ويبقى «حوار الثقافات» لذلك، مجرّد تفعيل لمعادلة مصنوعة، أطرافها غير معنيّة بشيء.. كما يبقى هذا الحوار مجرّد ظلّ لواقع الصّراع لا يستفيد منه ومن طرحه وتفعيله إلا أولئك الذين يتخندقون في خندق الماديّة المهيمنة..

obeikandl.com